بائعة الخبز

في ذلك البيت المتطرف على حدود تلك القرية النائية، تعيش (حُسْن) مذ أدركت معنى الحياة وتعبها، ورثت عن أبويها هذا البيت البسيط، كما ورثت عنهما الوحدة والحزن ونفور الناس.

«ينفر الناس من كل ضعيف مجهول الهوية والأصل، يعتبرونه نكرة لا يستحق الحياة» هكذا كانت تقول أمها.

تعيش في منطقة منبوذة، الجيران إمّا لص مناور أو شرير مخادع لا يدرك لغضب الله معنى؛ لذا يكره أهل القرية تلك المنطقة التي تجمَّع فيها الناس من كل حدب وصوب فاستوطنوها، لا تفوح هنا سوى رائحة السوء، فتبدو (حُسْن) كغزالة ضعيفة شذّت عن القطيع..!

تصنع الخبز -الذي ورثت طريقة إعداده عن أمها- وتخرج في الصباح؛ لتجلس به على إحدى النواصي حيث يتجمع الباعة، تظل هناك حتى تأكل الشمس رأسها، ويستحيل وجهها الأبيض أحمرًا، فتبدو تلك الفتاة بعينيها الخضراوين وشعرها الأصفر الذي تطلّ بعض خصلاته ثائرة خارج طرحتها الزرقاء التي تلقيها فوق رأسها، وقد ارتدت عباءة استحال لونها الأسود لونًا آخرَ، غير أن هندامها هذا لم يُخْفِ شيئًا من جمالها الذي كان يسيل له لعاب اللئام ومرضى القلوب.

"سالم" -أحد سكان تلك المنطقة المنبوذة- رجل سيء لم يدع ذنبًا إلا اقترفه، يحيا بالبلطجة على خلق الله، متزوج ولديه أبناء

لا يعلم عددهم ولا أرضهم، يرى (حُسْنا) فيزداد نداء الحيوان داخله، طلبها للزواج في حياة أمها -بعدما يئِس من النيل منها-؛ فرفضته، ثم تصوّر أنها حين صارت وحيدة، سترضخ، ولما خاب ظنه، ازداد غيظًا على غيظ.

وإذا كان ربُّ البيت بالفحش سائرًا بين الخلق، فَشِيَم أهل البيت لن تختلف كثيرًا عنه، كان لسالم زوجة لا تقل سوءًا عنه، بعدما رأت رغبة زوجها في (حُسْن) اشتعلت نيران الحقد في صدرها، حاولت أن تتخلص منها بشتّى السُبُل إلا أن انعزال (حُسْن) وانصرافها عن الجيران وما عندهم، صعّب عليها تلك المهمة، فكلّما دبَّرت لها مكيدة نجت منها (حُسْن) التي تدعو الله ليل نهار أن يحفظها من أذى هؤلاء الجيران الذين لا يرقبون في أحد إلًّا ولا ذمة!

كان(عامر) شابًّا مكافحًا، يبيع الخضروات متجولًا في شوارع القرية، يخرج - كل يوم - ببضاعته في الصباح الباكر، يرى (حُسْنا) فيذوب قلبه حبًّا، ويزداد بها تعلقًا، غير أنها لا تشعر به كما لا تشعر بغيره، وكأن قلبها الغضّ قد جفَّ فما عاد ينبض، كان منتهى أمله أن يُعْطَى من الشجاعة ما يمكّنه من الوقوف أمامها معترفًا بمشاعره، هو يريدها زوجة وملكة متوجة على عرش قلبه الفقير، يريد أن يحمل عنها ما تلاقيه من عناء السعي وراء لقمة العيش، غير أن هذا العناء نفسه كان سبب حبه لها ورمز جمالها في عينيه.

خرجت حسن -ذات يوم- في طريقها إلى المكان الذي تبيع فيه سلعتها، فاعترض (سالم) طريقها، حاولت تجاهله إلا أنه تطاول وزاد في جهالته، فما كان منها إلا أن خلعت حذاءها وانهالت عليه بالضرب، تجمع الناس، لكنهم انقسموا بين لائم للرجل، يسبّ فعله، وبين متحامل على الفتاة متهم لها بالمشي (البطّال) وكيد النساء، أخذت خبزها ومضت في طريقها، تلعن "سالمًا" وكل من ظن فيها السوء.

تغيّر موقف (سالم) بعد نزول حذاء (حسن) على رأسه، هو يرى أنها نالت من رجولته أمام الناس؛ فقرر أن يلقّنها درسًا لا تنساه، بدأ يحثّ زوجته على إيذاء (حُسْن) متهمًا لها بمحاولة إغرائه وحمْله على الزواج منها، فبدأت الزوجة الحمقاء في إيذاء الفتاة المسكينة حتى ضيَّقت عليها كل واسع فباتت لا تفكر إلا في بيع البيت، والرحيل من هذا المكان، لكن.. إلى أين؟!

انقطعت عن الخروج، مكثت في البيت أيامًا بسبب ما يفعله ذلك الرجل وزوجته من إهانة وإيذاء، فقلق (عامر)، ماذا أصاب الفتاة؟ هو يعرف مكان سكنها، لكنه متردد في الذهاب للسؤال عنها، لا يعلم كيف ستستقبل الأمر، مر أسبوع كامل لم يرها خلاله، لم يستطع الانتظار أكثر، سيذهب للسؤال عنها وليكن ما يكون بعد ذلك.

انطلق (عامر) قاصدًا بيت (حُسْن)، ما إن وصل تلك المنطقة المتطرفة في آخر القرية حتى بدأ يسأل عن (حُسْن) بائعة الخبز، فوجد من دلّه على بيتها، وصل إلى هناك، تعجبت حين رأته، ثم

شكرت له اهتمامه وسؤاله، واعتذرت عن استقباله، فقبل عذرها وهمّ بالرحيل، غير أن (سالمًا) الذي كان يراقبه مذ دخل الشارع، وجد أن ساعة الانتقام قد حانت، فراح ينادي في الناس:

_ انظروا إلى هذه الفتاة اللعوب، ها هي تستضيف الرجال في بيتها نهارًا دون حياء، ها هي التي تدّعي الطهر والنقاء..!

تجمّع الناس وكَثُرَ المتفرّجون، وجدت الفتاة نفسها بين عشيّة وضحاها في دائرة الاتهام، حتى أولئك الذين يعترفون -بين أنفسهم- بنقائها شاركوا في التقوّل عليها، مرددين كالببغاء (اللي تحسبه موسى يطلع فرعون) فلم تجد حُسْن بُدًّا من ترك تلك القرية الظالم أهلها.